روى ٥ ومن هذه الاقسام ما هو سجيّة الاغلب من الناس فتناوله اورب وسلكه لا يتعذر ومنه ما هو اصعب تناولا كالموزون عند بعضهم او الشعر عند الاخرين وكل هذه الوجوه لا تخرج عن ان يقع لهم باحد امرين اما بتعمّل وتكلف وعلم وتصنع او باتفاق من الطبع وقذف من النفس على اللسان للحاجة اليه ولو كان ذلك مما يجوز اتفاقه من الطبايع لم ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم ويتعرض على الستنهم وتجيش به خواطرهم ولا ينصرف عند الكل مع شدة الدواعي اليه ولو كان طريقه التعلم لتصنعوه ولتعلموه فالمهلة لهم فسيحة والامد متسع

وقد اختلفوا في الشعر كيف اتفق لهم فقد قيل انه اتفق في الاصل غير مقصود اليه على ما يعرض من اصناف النظام في تضاعيف الكلام ثم لما استحسنوه واستطابوه ورأوه انه تالقه الاسماع وتقبله النفوس تتبعوه من بعده وتعملوه وحكي لي بعضهم عن ابي عمرو غلام ثعلب عن ثعلب ان العرب تعلم اولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض اوزان الشعر كانه على وزن قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ويسمون ذلك الوضع المتيرا واشتقاقه من المتر وهو الجذب او القطع يقال مترت الحبل معنى قطعته او جذبته ولم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره فيحتمل ما قاله واما ما وقع السبق اليه فيشبه ان يكون على ما قدمنا ذكره اولا وقد يحتمل على قول من قال بان اللغة اصطلاح انهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم وقد يمكن ان يقال مثله على المذهب الاخر وانهم وقفوا على ما يتصرف اليه القول من وجوه التفاضح او توافقوا هم بينهم على ذلك ويمكن ان يقال ان التواضع وقع على اصل الباب وكذلك التوقيف ولم يقع على فنون تصرف الخطاب وان الله اجرى على لسان بعضهم من النظم ما اجرى وفطنوا لحسنه فتتبعوه من بعد وبنوا عليه وطلبوه ورتبوا فيه المحاسن التي يقع الاضطراب بوزنها وتهش النفوس اليها وجمع دواعيهم وخواطرهم على استحسان وجوه مزتيبها واختيار طرق من تترتيبها وعرفهم محاسن الكلام ودلهم على كل طريقة عجيبة ثم اعلمهم عجزهم عن الاتيان بالقرآن الذي يتناهى اليه قدرهم وهو ما لم يخرج عن لغتهم ولم يشذ من جميع كلامهم بل قد عرض في خطابهم ووجد وان هذا انما تعذر عليهم مع التحدي والتقريع الشديد والحاجة الماسة اليه مع علمهم بطريق وضع النظم والنثر وتكامل احوالهم فيه دل على انه اختص به ليكون دلالة على النبوة ومعجزة على الرسالة ولو كان ذلك كان القوم اذا اهتدوا في الابتداء الى وضع هذه الوجوه التي يتصرف اليها الخطاب

على براعته وحسن انتظامه فلان يقدروا ابعدا لتثنية على وجهه والتحدي اليه اولى ان يبادروا اليه لو كان لهم اليه سبيل فلو كان الامر على ما ذكره السايل لوجب الا يتحيروا في امرهم ولا تدخل عليهم شبهة فيما نابهم ولكانوا ييسرون الى الجواب ويبادرون الى المعارضة ومعلوم من حالهم ان الواحد منهم يقصد الى الامور البعيدة عن الوهم والاسباب التي لا يحتاج اليها فكثر فيها من شعر وخطب وبخل من بعينه على نقله عنه على ما قدمنا ذكره من وصف الابل ونتاجها وكثير من امرها لا فايدة في الاشتغال به في دين ولا دنيا ثم كانوا يتفاخرون باللسن والذلاقة والفصاحة والدراية ويتنافرون فيه وتجري بينهم فيه من اسباب المنقولة في الآثار الاثار على ما لا يخفا على اهله فاستدللنا بتحيرهم في امر القرآن على حزوجه عن عادة كلامهم ووقوعه موقعا يخرق العادات وهذا سبيل المعجزات فبان بما قلنا ان الحروف التي وقعت في الفواصل متناسبة موقع النظاير التي تقع في الاسجاع لا يخرجها عن حدها ولا يدخلها في باب السجع ٥ وقد بينا انهم يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الاجزاء فكان بعض مصاريعه كلمتين وبعضها تبلغ كلمات ولا يرون في ذلك فصاحة بل يرونه عجزا فلو راوا ان ما تلي عليهم من القرآن سجعا لقالوا انخن نعارضه بسجع معتدل فنريد في الفصاحة على طريقه القرآن ويتجاوزه في البراعة والحسن ولا معنى لقول من قدر انه ترك السجع تارة الى غيره ثم رجع اليه لانا نحيل من الامرين يوذن بان وضع الكلام غير ما قدروه من التسجيع لانه ولو كان من باب السجع لكان ارفع نهاياته وابعد غاياته ولا بد لمن تجوز السجع فيه وسلك ما سلكوه من ان يسلم ما ذهب اليه النظام وعباد بن سليمان وهشام القرطي ويذهب مذهبهم في انه ليس في نظم القرآن وتاليفه اعجاز وانه يمكن معارضته وانما صرفوا عنه ضربا من الصرف او يتضمن كلامه تسليم الخبط في طريقه النظم وانه منتظم من فرق شتى ومن انواع مختلفة ينقسم اليها خطابهم ولا يخرج عنها ويستبين بديع نظمه وعجيب تاليفه الذي وقع التحدي اليه وكف بعجزهم الخروج عن السجع والرجوع اليه وقد علمنا عادتهم في خطبهم وكلامهم انهم كانوا لا يلتزمون ابدا طريقة السجع والوزن بل كانوا يتصرفون في انواع مختلفة فاذا ادعوا على القرآن مثل ذلك لم يجدوا فاصلة بين نظمي الكلامين فصل في ذكر البديع من الكلام يتضمنه من الكلام ان سأل سايل فقال هل يمكن ان يعرف اعجاز القرآن من جهة ما

Copyright King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)